حركة رابح فضل الله بين الحركة المهدية والدعوة السنوسية
١٨٧٩-١٩٠٠

ا.د جاسم محمد شطب العبيدي
جامعة كربلاء /كلية التربية للعلوم الانسانية
Ali_t_alhilli@yahoo.com

ا.م.د علي طاهر تركي الحلي
جامعة كربلاء /كلية التربية للعلوم الانسانية
Ali_t_alhilli@yahoo.com

ملخــص البحث :-

يتناول البحث حركة رابح بن فضل الله (رابح الزبير)، من حيث اسباب قيامها، وأهم الدوافع التي دفعته لاتخاذ إقليم حوض بحيرة تشاد ميداناً لنشاطه ، واثر ذلك في القوى المحلية وموقف هذه القوى من هذا النشاط، وكذلك يتناول هذا البحث علاقة رابح بالحركة المهدية المعاصرة لنشاطه ، وعلاقته بالدعوة السنوسية المنتشرة والمتحكمة بالصحراء الكبرى، و تناول الباحث أهم نتائج دعوات محمد أحمد المتمهدي السوداني وخليفته عبد الله التعايشي[1] لرابح وأسباب مواقفه لدعوة هؤلاء بالنصرة والموالاة ، و تناول الموقف السنوسي من نشاط رابح وعلاقته بالقوى المحلية وعلاقة هذه القوى بالفرنسيين وموقف هؤلاء من العلاقة بين رابح والشيخ السنوسي، وأخيراً وصف الحلقة الأخيرة من المنازلة بين رابح والقوة الفرنسية في وسط القارة .

الكلمات المفتاحية : حركة – رابح – السودان –المهدية –السنوسية.

Abstract

The researcher had deal with Rabih Fadhallah(Rabih az-Zubair),the reason or its emerges and more important inducements which was motive him to assumed region of lake Techad basin field for his activity ,and its impression on local forces ,and attitude of their forces from this activity .In same way the research treat Rabih relationship with Al- Mehdiya Movement which was contemporary to his activity , and his relationship with Senosian organization which was spread through and controlled on African great desert, as just the researcher had deal more important results of Sudanian Muhammed Ahmad Al-Mehdi and his successor Abdullah Al-Taaishi requests to Rabih, and the reasons which was behind Rabih refuse them requests ,as just the researcher had deal The Senosian attitude from Rabih activity and his with local forces and their relation with Francians,and them attitude from relation between Rabih and Al-Shaikh Al-Senosi and at the end I shall be describe the finally rounds from battle between the France force and Rabih .

Key word: Rabih– Movement– Senosian– Al– Mehdiya

المقـــدمة :-

تعد حركة رابح بن فضل الله من أبرز الحركات الإسلامية في أفريقيا جنوب الصحراء على أعتاب العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وأكثرها أصالة في الوقوف بوجه تقدم الاستعمار الغربي، ولقد استطاع هذا المقاتل الجسور في فترة قصيرة جداً أن يؤسس إمارة واسعة مترامية الأطراف وأن ينشر الدين الإسلامي بين الوثنيين في حوض بحيرة تشاد اعتماداً منه على الفقراء والمعدمين من أمثاله من الهاربين من السودان الشرقي أو من أولئك الذين اجتذبتهم حركته العادلة، فعمل بجهوده الخاصة على تسليحهم وتدريبهم ، وتمكن بهم من منازلة الاستعمار الفرنسي والانتصار عليه ردحاً من الزمن ، لذا تظافرت ضده العديد من القوى المحلية الإسلامية، والقوى الوثنية والفرنسيون ، الذين استغلوا الأخطاء التي وقع بها، التي لم تسمح له تنشئته أو ثقافته أو بناؤه الفكري دون الوقوع بها ، بمباركة البريطانيين الذين أحكموا سيطرتهم على بلده

الأصلي بعد القضاء على الثورة المهدية، التي كانت هي الأخرى واحدة من أشهر الثورات الإسلامية ليس في السودان فحسب بل على مساحة الأمة الإسلامية .

عاصر رابح بحركته اثنتين من الحركات الدينية الاسلامية في أفريقيا، وهما الدعوة السنوسية المعادية جداً للاستعمار الغربي التي نشطت في الصحراء الكبرى، والحركة المهدية في السودان الشرقي، وكل الزعماء في الحركتين طلبوا منه النصرة ، ولكنه في النهاية شق طريقه بعيداً عن أي منهما، مع ميل واضح للسيد محمد المهدي السنوسي، وسنعرف لماذا كان رابح أكثر ميلاً للسيد السنوسي منه إلى محمد أحمد المهدي وخليفته عبد الله التعايشي .

على اية حال على حد معرفتي المتواضعة لم يتناول أي المؤرخين العرب هذا الموضوع بعمل مستقل سوى ما كتبه سعد الدين الزبير في كتابه الرائع المعنون "**امبراطورية رابح**" وعبد الله عبد الرازق ابراهيم، الذي استعرض نشاط رابح ضد الاستعمار الفرنسي ضمن كتاب أصدره تحت عنوان ، " **الأسلام وتحدي الاستعمار الأوربي في أفريقيا** " وهنالك كتاب باللغة الفرنسية كتبه (جماع أرباب أبو بكر)، وهو أحد أحفاد قواد رابح بعنوان" **امبراطورية رابح**" . أما في العراق فلم ينتبه للموضوع أحد، لذا وجدت نفسي معنياً بالكتابة عنه بعد أن اكتملت لدي المعطيات التاريخية، وأرجو مخلصاً أن اعطي الموضوع حقه، وأجري على الله إذا أخفقت، وحسبي أني اجتهدت .

رابح بن فضل الله نشأته الأولى :-

ولد رابح بن فضل الله عام ١٨٤٢ لأحد زعماء قبيلة فونجي النوبية [٢] في بحر الغزال في قرية حلفاية الملوك بالقرب من العاصمة الخرطوم ، وتلقى تعليمه الأول في مدرسة محلية ونشأ تنشئة عسكرية منذ صباه وشارك أباه في معاركه ضد القبائل الأخرى المجاورة ، وعندما لقي والده مصرعه في احدى المعارك وهو لم يزل شاباً في تلك البيئة القبلية لم يكن أمامه بد من الانخراط في الخيالة غير النظامية في الجيش المصري في السودان [٣]وكان لبنائه الجسماني وجسارته أثر كبير في أن يشق طريقه في ذلك الوسط العدواني، إذ كان طويل القامة نحيف البنية عظيم الهامة واسع الحيلة، خفيف الحركة معقوف الأنف خفيف اللحية قصير الشاربين أسود اللون زنجي القسمات بشوش الوجه أصيل الأخلاق متواضعاً متديناً سخياً حازماً لا يرى إلا مكبراً ومسبحاً وهو مالكي المذهب، جمع في كهولته بين وقار الكهول ورشاقة الشبان، وكان يعتمر عمامة بيضاء بشكل دائم وكذلك قادته وجنوده[٤] .

وشارك في حروب الخديوي إسماعيل، ومن غير المؤكد أنه شارك في الفرقة المصرية، التي اشتركت مع الجيش الفرنسي في حربه في المكسيك المكونة بكاملها من الجنود السودانيين [٥]الذين حازوا على إعجاب وتقدير القادة الفرنسيين لشدة بأسهم وبسالتهم "**إن هؤلاء ليسوا من الجنود بل هم أسود** "على حد تعبير فيوري قائد الحملة الفرنسية على المكسيك [٦]، وإن صحت هذه الرواية فقد أكسبته تلك التجربة حنكة سياسية وعسكرية وقدرة على التقدير والتصرف بسداد في المواقف التي تتطلب أصالة في الرأي ثم ما لبث أن أصيب في يده اليمنى في مغامرة الخديوي إسماعيل في الحبشة[٧] .

وعاد وانظم إلى تاجر الرقيق (الجلاب)الزبير بن رحمة منصور الذي يكبره بأحدى عشر عاماً، عندما سطع نجمه في بحر الغزال وصار يجمع حوله الأنصار، فكان ذلك إيذاناً لارتباطه به حتى النهاية، وطغى عليه اسمه وأصبح يعرف برابح الزبير ، ومن غير الممكن أن يكون رابح مملوكاً للزبير كما اعتقد البعض [٨]ولا يمكن فهم الدور الذي قام به رابح بعيداً عما كان يدور في السودان حيث تربى رابح في بداية حياته، ومدى ارتباطه بالزبير بن رحمة، فمن هو الزبير (ود) رحمة؟.

لقد ولد الزبير في تموز (يوليو) ١٨٣١في جزيرة واوسي التي لا تبعد كثيراً عن الخرطوم[٩]، فنشأ فيها نشأة دينية وحفظ القرآن في مقتبل العمر ودرس الفقه على شيوخها وصار اسمه يلمع في بحر الغزال، واشتغل بدأ من عام ١٨٥٩ وكيلاً عند أحد تجار القوافل المصريين، كان ينقل الرقيق بين مصر وبحر الغزال، يدعى على أبو عموري النجعاوي، من (نجع حمادي) في صعيد مصر، ولم يمض سوى وقت يسير حتى كون لنفسه تجارة مستقلة، وكان يقايض الخرز بأنواعه والمصنوعات والأقمشة بريش النعام والعاج والنحاس والرقيق، فجمع من ذلك النشاط ثروة طائلة، ومن هنا ظهرت حاجته لجمهرة من الرجال مدربة على فنون القتال لحراسة القوافل في متاهات الصحاري الواسعة[١٠]، وأصبح الزبير ابتداءً من عام ١٨٦٥ يعمل على فرض سيطرته على مصادر السلع التجارية، وأعد لذلك جيشاً قوياً مشترى مكوناً من أربعة آلاف جندي تحت قيادة قادة محليين مثل ابنه سليمان ورابح بن فضل الله وغيرهما، رابح الذي ساق له القدر فرصة لاتعوض في إظهار مواهبه القيادية فرقي إلى رتبة جندي ثم إلى رتبة ضابط ، وأظهر شجاعة وبسالة لا تبارى مما جعله يحتل مركزاً متميزاً في جيش الزبير[١١] ، وتصدى بجيشه لتحدي قبائل الجنوب وانتصر عليها فسيطر على مملكة النمانم وإقليم بحر الغزال الغني بالعاج الذي أضحى يعرف بديم الزبير بعد أن أجهز على ملوكها الواحد تلو الآخر، وشرع يؤسس دولة حديثة تابعة له فنظم القوافل التجارية، وعقد اتفاقات مع شيوخ القبائل وفرض الرسوم التجارية على السلع، فأثار بذلك حسد الحكام المحليين الآخرين مثل محمد البلالي حاكم منطقة حفرة النحاس في جنوب دارفور، الذي حاول هو الآخر السيطرة على بحر الغزال في عام ١٨٦٩، بيد أنه عجز عن مواجهة جيش الزبير القوي، فلجأ إلى القاهرة لمقابلة الخديوي إسماعيل معرباً عن أمله أن يمده بقوة عسكرية يتمكن بها أن يحتل بحر الغزال، وقد أمده بقوة عسكرية صغيرة تقدر بحوالي ٦٠٠ مقاتل من السودان ومصر بقيادة محمد منيب من السودان وعلى كوچوك (الصغير) من مصر [١٢] ، مع فرمان توليته مديراً لمديرية بحر الغزال ، فطاف بذلك الفرمان مراكزها وزرائبها ، فمنهم من دخل في طاعته ومنهم من فر إلى مكان آخر.

كان هدف الخديوي إسماعيل من وراء ذلك البحث عن تمويل لخزينته المجهدة ، بيد أن الحرب سارت على غير ما يشتهي الخديوي ومن ورائه البلالي الذي هزم هزيمة منكرة وقتل على يد رابح في معركة ديم جيجو بالقرب موفيو في نيسان(أبريل) ١٨٧١، ثم أجهز في العام التالي على تكمة مك(ملك) بلاد النمانم المجاورة لبحر الغزال، الذي صار يخشى سطوة الزبير واتساع ملكه، وفي عام ١٨٧٣ ضم بلاد شكا وأخضع عرب الرزيقات، وهم جزء من مملكة الفور. وفي عام ١٨٧٤ ضم إلى أملاكه مملكة الفور الواسعة بكاملها، عندها رأت الحكومة المصرية عدم جدوى محاربة الزبير الذي تنامت سلطته وقواته نمواً واضحاً [١٣] وازداد بذلك الضم أعداؤه، ورأى من جانبه أنه من الحكمة مصالحة الحكومة المصرية وإعلان ضم كل المناطق التي استولى عليها وأصبحت ضمن دائرة ملكه إلى أملاك الخديوي بما في ذلك إقليم الفور الهائل، وألزم نفسه بدفع ١٥الف جنيه جزية سنوية للحكومة المصرية، وكان ذلك في مقابل الاعتراف بسلطته على المناطق التي كان يحكمها، والانعام عليه بوسام شرف من الدرجة الثانية، ورتبة لواء مع درجة الباشوية الملازمة لها، وربما لم يكن الزبير بحاجة إليها، بيد أن المهم في ذلك هو تجهيز جيشه الذي توسع توسعاً هائلاً، بالمقاتلين والأسلحة والمعدات العسكرية[١٤].

سهلت هذه الخطوة ، التي تعوزها الحكمة من جانب الزبير رحمة ، على الخديوي إسماعيل الإطاحة به فاستغل بعض الوشايات والأحقاد المحلية، فاستدعاه إلى القاهرة في عام ١٨٧٥ وسط مظاهر التكريم الخادعة ، ووضع تحت الإقامة الجبرية برغم معارضة رابح الذي ربما استشف ما كان يُبيت لسيده ،جزاءً عادلاً لاطمئنانه إلى مزاج الخديوي المترجرج ، ولأنه آثر مصلحة مصر ومن ورائها الدولة العثمانية، على مصلحته الذاتية ومصلحة قومه من ورائها مصلحة

إقليم دار فور، على الرغم من خطورة النتائج التي انطوت عليها في تكوين دولة السودان الحديث، وبإرساله في العام التالي للاشتراك في الحرب الروسية العثمانية ١٨٧٦-١٨٧٨ [١٥] ، انتهى الدور الذي أداه كزعيم وكحاكم لمنطقة بحر الغزال ودارفور .

تلك الخطوات التي مهدت المجال لظهور شخصية رابح بن فضل الله الذي كان بطل معارك الزبير ضد أعدائه بلا منازع ، وأصبح عوناً لسليمان بن الزبير الذي تركه والده ليقوم مقامه ، كما كان لأبيه من قبل ، ولكن الأمر لم يستقر لسليمان طويلاً ، إذ ما أن استلم حكم مديرية بحر الغزال من قبل گوردن الذي عين حاكماً عاماً للسودان في شباط(فبراير)١٨٧٧حتى دخلت المنطقة في سلسلة من الصراعات ، ووجد سليمان نفسه أمام مؤامرة هذا الأخير الذي كان يخشى من تحالف محتمل بين سليمان وأتباعه ومحمد أحمد (**المهدي**)، لذا عمد إلى تفريق جيشه وتعيين قيادات جديدة له، مما أغضب ذلك سليمان وهب يدافع عن كيانه ، وأرسل إليه گوردن حملة عسكرية بقيادة روميللو گيسي Romello Gessi[١٦]، تمكن فيها من هزيمة سليمان وإجباره على الانسحاب بقواته شمالاً، ثم لم يلبث هذا الأخير أن استسلم على يد بعثة جيش گيسي عملاً بنصيحة والده الذي دعاه من القاهرة بإيقاف المقاومة، برغم معارضة رابح أيضاً لفكرة الاستسلام ، بعد ان حصل على وعد منه بالإبقاء على حياته وحياة جنوده المستسلمين معه، إلا أنه اغتيل وبعض رجاله غدراً في ١٤تموز (يوليو) ١٨٧٩ . وهنا برز رابح بإنقاذ ما تم إنقاذه من جيش الزبير بهروبه من الفخ الذي نصب له مع مجموعة من المخلصين تراوح عددهم بضعة مئات من بينهم ١٠من أبرز قادة جيش سليمان، كانوا يتسلحون ببضع مئات من البنادق[١٧]، وتقدم بهم غرباً إلى دارسيلا Dar Sila بين دارفور ووداي، وشرع بإعادة بناء جيشه وتسليحه، وتكفل تجار الرقيق والأوربيون وزعماء القبائل بتزويده بحاجته من السلاح [١٨] .

رابح يشرع بتأسيس امبراطوريته :-

كانت إمارة دار سيلا إحدى المناطق الواقعة بين دارفور ووداي ومن أولى الإمارات التي احتلها رابح ، إلا أنها فيما يبدو لم تكن ملائمة لاستقراره وأتباعه فاستقر بعدها في إمارة دار رونگا Dar Runga على ضفاف نهر أكوديبي(أحد روافد نهر النيجر) في الجنوب الغربي من دارفور ، ومن هناك صار يراسل القوى المحلية ، فكتب إلى يوسف سلطان واداي طالباً منه الحماية ، فبادره الأخير بحملة عسكرية رداً على احتلاله للإمارتين فضلاً عن إمارتي دار تاما DarTama ودار الكوتي Dar Koti اللواتي كن بمجموعهن من ممتلكات سلطان واداي من الناحية الاسمية[١٩] ، ثبت لها رابح وأتباعه فانهزمت ،عندها أدرك رابح عدائية المحيط الأفريقي من حوله ، وأدرك ذلك المحيط خطورته هذا البطل المقدام .

في مقابل ذلك دعاه محمد أحمد المهدي السوداني عقب سيطرته على الأبيض وما كان ليغفل عن شخصية متحمسة مجربة ، لها ثأر كبير لدى گوردن مثل رابح الذي كان عندها في الفراتيت على راس قوة كبيرة ولكنه لم يستجب له [٢٠]. ولو فعل رابح ذلك لربما تغير مسار تاريخ بلاد السودان ، إذ يقدم محمد أحمد المهدي الغطاء الديني المناسب الذي ظل رابح يفتقر له حتى النهاية ، ويحصل على خدمات رجل سوداني باسل جسور وفي المرة الثانية دعاه بعد انتزاعه الخرطوم من الحكم المصري ومقتل گوردن في عام ١٨٨٥مقترحاً عليه مقابلته في أم درمان، وحمل دعوة المهدي إلى رابح مبعوثان وهما زين العابدين وجبر، وقد تبعهما رابح من دار الكوتي إلى دار فور، بيد أنه لما علم بوفاة المهدي السوداني، وتولي خليفته عبد الله التعايشي الأمر في الخرطوم ، قفل راجعاً إلى حصنه في دار الكوتي، لما بين الرجلين من الأحقاد

والاحن القديمة عندما كان رابح على رأس جيش الزبير ود رحمة ، لذا لم يتوقع منه قيادة رشيدة بعيدة عن الأحقاد والنظرة القبلية الضيقة ، فكان لا يتورع عن سجن أو قتل أو إقصاء لكل من يتوسم فيه الخطر على زعامته[٢١] ، ولذلك ذهبت (الانسكلوبيديا) البريطانية إلى وجود تدبير لاغتياله ، استناداً إلى ما كان يتوقع له لو قبل الدعوة [٢٢] . وكان حرياً برابح أن يضع مصلحة بلاده السودان دون مصلحته أو توقعاته وأن لا يحرث في أرض غيره .

بيد أن دعوة عبدالله التعايشي (الخليفة) كانت أكثر وضوحاً ، إذ اتصل به عن طريق ابن عمه عثمان آدم في ٢٢آب ١٨٨٦ في كتاب مطول عكس اهتمام عبد الله التعايشي برابح وقوته العسكرية وشدة بأسه، سطر فيه التعايشي كل سفر انتصارات الحركة المهدية على أعدائها، والأعداد الكبيرة من أهل السودان الذين انضووا تحت كنفه، واعداد البنادق والمدافع والقادة الذين كان من المؤكد أن رابح يعرف بعضهم ، وحثه بالإسراع بالالتحاق بالحركة. وخلت الرسالة من التهديد والوعيد والويل والثبور الذي تضمنته رسائله لمن ينكر دعوته أو يتهاون عن اللحاق به، ضمن حزمة من الرسائل إلى مشاهير قادة العالم آنذاك مثل الملكة فكتوريا والسلطان عبد الحميد الثاني والخديوي اسماعيل و محمد يوسف بن محمد الشريف سلطان واداي ، ومحمد المهدي السنوسي ، ولكن دون نجاح يذكر[٢٣]. ولم تذكر المصادر التي تناولت الموضوع أسباب عزوف رابح فضل الله ، بقصر نظر واضح ، عن الاستجابة لدعوة مهمة كهذه ، سوى حادثة عرب الرزيقات التي أسرفيها الأخير عبد الله التعايشي وقدمه إلى الزبير (ود رحمة) فحكم عليه بالإعدام لولا تدخل المشايخ لديه. ويبدو أن رابح أبى تسليم قياده إلى رجل محنك وطموح ومراوغ وأفاق وعاشق للسلطة مثل عبد الله التعايشي ، فأضاع بذلك فرصة تاريخية لا تعوض وبقي هو بعيداً عن الأحداث الجسام التي دارت بعد ذلك في بلاده السودان الشرقي، إذ تمكن البريطانيون والمصريون والأتراك بالإجهاز على انتفاضة الشعب السوداني ضد القهر والظلم والاستغلال .

ويبدو أن بعض أسباب تردد رابح وعدم الإسراع بالالتحاق بجيش محمد أحمد المهدي هو أنه ربيب الزبير باشا ود رحمة المقيم إقامة جبرية في القاهرة ، الذي يوحي لقبه الشرفي بالعلاقة التي تربطه بالحكومة المصرية المرتبطة بالحكومة العثمانية ، على الرغم من تصرف گوردن البعيد عن اللياقة الدبلوماسية أو تصرف مستخدمه روميللو گيسي الغادر، الذي أخذ سليمان بن الزبير غيلة فغدر به بعد أن أمنه، ويمكن أن نورد وصية الزبير لابنه "**أوصيتكم قبل مجيئي مصر بالامتثال لأمر الحكومة وعدم مخالفتها في شيء . . . [وعند] تولي گوردن باشا حكمدارية السودان كتبت إليكم بالطاعة لأوامره [،] وحذرتكم من مخالفته وقلت لكم أن رضاه مرهون برضا الحضرة الخديوية وغضبه كذلك [،] واني أوصيته بكم فوعدني خيراً**"[٢٤].في حين كان محمد أحمد المهدي معادياً تمأماً للحكومة المصرية في السودان، و كان معادياً للدولة العثمانية والأتراك" **أيها الأحباب أن الأمر كله لله وإليه المرجع والمآب [،] وأن النبي** صلى الله عليه وعلى آله وسلم **لما أجلسني على كرسي المهدية قد أمرني بجهاد الترك [،] وقال لي أن الترك كافرون[،] بل هم أشد الناس كفراً ونفاقاً**"[٢٥] وقال أيضاً مخاطباً السلطان عبد الحميد" **وما كان منك أن تتخذ الكافرين أولياء من الله وتركن إلى موادتهم ومتابعتهم على ما يجلب لك سخط الله**"[٢٦] .

ولذلك ابتعد رابح عن ساحة نضاله الرئيسة وخاض نضالاً شديداً متواصلاً بين عامي ١٨٨٠ و١٨٨٥ ضد القوى المحلية في السودان الأوسط حتى استقر في منطقة دار الكوتي[٢٧] ، ومن دار الكوتي توجه لمقابلة البعثة الاستكشافية الفرنسية التي لم تكن بعثة بالمعنى الصحيح بقدر ما كانت حملة عسكرية بقيادة المستكشف بول كرامبل Paul Crampel الذي بعث من قبل حكومته لاستكشاف المنطقة الواقعة بين الكونغو وبحيرة تشاد في عام ١٨٩٠ ، قتل على أثرها قائد البعثة بطريقة مبهمة لعدم معرفة الطريقة التي قتل فيها ، ومهما كانت تلك الطريقة ، فإن رابح غنم أعداداً كبيرة من

الأسلحة الخفيفة لتسليح أفراد جيشه المتزايد ؛٨٢٠ مسدساً من أنواع مختلفة و٢,٥٠٠بندقية مع عدد كبير من السيوف [٢٨]، وكانت تلك الحادثة انطلاقة رابح لإقامة أسس دولته.

أثار رابح رعب القوى المحلية بجيشه المدرب الذي ناهز تعداده في وقت من الأوقات ٣٠٠٠٠ جندي ، المقسم إلى ٣٠ فرقة ، وعلى رأسه خيرة القادة ممن اشتهروا بالبسالة والولاء والإخلاص من أمثال فضل الله بن رابح ومحمد نبيه وعبد القادر بن أبي ضخين والقائد عيد والأمير يوسف والقدم الشيخ ذهب والفقيه أحمد الكبير وأرباب أبو بكر وغيرهم، المسلح تسليحاً جزئياً ببنادق المارتيني Martini والونچستر Winchester وريمنگتون Remington الحديثة التي يعود تاريخ صنعها بمجموعها إلى أربعينيات القرن التاسع عشر ، وكانت تعد آنذاك من أفضل أنواع الأسلحة وهي تعبأ بعشر إطلاقات دفعة واحدة [٢٩]، وهذا يعد آنذاك امتيازاً ، فضلاً عن ٣٠٠ أسطى أسلحة من أمهر صناع السلاح ،بمثابة وحدة هندسة أو برادي أسلحة كانوا يرافقون جيشه لتصليح ما يعطب من الأسلحة أو تحوير المغانم القديمة الطرز منها إلى أسلحة حديثة تعمل بالكبسولة . وهناك مجاميع أخرى كانت مكلفة بجمع أغلفة الذخيرة المستعملة الفارغة لإعادة ملئها، والويل لمن يهدر ذخيرة ، أو أن يفقد رصاصة واحدة، وكانت رايته خضراء وكتبت على حواشيها عبارة "**لا إله إلا الله، محمد رسول، نصر من الله وفتح قريب** " ، فيما كان جنوده يعتمرون عمائم بيضاء، أما الوثنيون من جيشه فقد كانوا يقاتلون عراة إلا ما كان يستر عوراتهم من قطع القماش والجلود[٣٠] .

فلم تدخر هذه القوى وسعاً في التحالف ضده يدفعها ما رأت منه مثل اجتياح ممالك حوض بحيرة تشاد ، ففي عام ١٨٩٢ دمر دولة باگرمي تمهيداً لضم أراضيها إلى ملكه، ثم تصدى لحملة سلطان واداى المكونة من عشرين ألف مقاتل كانت مكلفة بإنقاذ دولة باگرمي، إلا أنها أضعف من أن تقف أمام جيشه الذي يفوقها عدة وعدداً، فتراجعت دون أن تحقق أهدافها[٣١]وتقدم رابح قبل الإجهاز عليها لتصفية حسابه مع القبائل الوثنية على ضفاف نهر شاري إلى الجنوب من بحيرة تشاد وأسهم بنشر الدين الإسلامي بين أفرادها.

ولما شعر سلطان باگرمي عبد الرحمن گورانگ بالخطر الداهم عندما استولى رابح على مدينة منهافا الواقعة على حدود هذه السلطنة، فضل التحالف مع الفرنسيين وزار إميل گنتيل Emil Gentil القائد الفرنسي گورانگ واستقبل بحفاوة في العاصمة ماسينا [٣٢]. ولما عرف رابح بهذا التحالف أعد عدته للقضاء على سلطنة باگرمي وإلحاقها بملكه . ثم استدار في العام اللاحق .١٨٩٣. نحو هدفه الكبير الذي لم يحد عنه ، وهو إمبراطورية برنو العريقة التي كانت تحت حكم الملك هاشم بن عمر أخر ملوك الأسرة السيفية التي حكمت هذه الدولة منذ القرن التاسع الميلادي، وكانت تعاني من صراع داخلي وتنافس على العرش، وكان هذا العاهل خائفاً مرتعباً من اقتراب رابح من حدود دولته وهزيمته لجيش سلطان واداي ،ثم دولة باگرمي وتمثيله لإرادة محمد زاهر أحد الأمراء المتنافسين على العرش من أبناء عمومة السلطان هاشم ، لذا قرر هذا الأخير أن يتبادره بحملة عسكرية استباقية بقيادة محمد طاهر أحد قواده ، فتصدى له رابح وأوقعه في الأسر، ثم تقدم بجيشه نحو مدينة كوكا عاصمة بورنو قبل أن يلتقط الملك هاشم أنفاسه بيد أن الأخير ترك عاصمته منهزماً عبر نهر شاري إلى زندر [٣٣]، فأوقع مقتلة عظيمة بسكان العاصمة كوكا ومما يذكر أنه قتل ما يقرب من3,000 من سكانها سوى من ألقي القبض عليهم من الجنود وبعض رجال الحاشية والقادة والتجار[٣٤] ، " **وإن سألت عن أخبار برنو إنفلقت[أخذت] ، أتاها رابح من جهة فور وجميع المال الذي فيها من طرابلسية وغيرهم ولا حول ولا قوة إلا بالله وهذا**

أمر الله ، وطريق برنو مسدود لا دخل ولا خرج ، والطرابلسية واحدين ماتوا واحدين أتو لكنو ولا عندهم شيء [كذا]" (٣٥)
.

ومن المفترض أن يعين رابح الأمير محمد زاهر سلطاناً لأنه دخل العاصمة تنفيذاً لمشيئته، إلا أنه اغتنمها فرصة وصار يتصرف في المملكة كأنه سلطان للبلاد، مما دفع الأمير محمد زاهر إلى تسوية صراعه مع ابن عمه هاشم على أساس تقسيم المملكة بينهما واتفقا على مقاومة رابح الذي جلا عن كوكا تحت ضغط المقاومة فيها، وأخذت تطورات الأحداث منحى أخراً بظهور محمد ابن أبي بكر الأمين خياري (كياري) ابن أخت هاشم وهو طامع جديد بعرش برنو فقتل خاله بعد أن رأى منه ميلاً للصلح مع رابح ، وقاد قواته لمواجهة قوات الأخير، فكسب واحدة من المعارك المهمة وسيطر على معسكر رابح ونكل بالنساء والأطفال والشيوخ ممن كانوا في المعسكر ولكنه هزم في اليوم التالي هزيمة مذلة ، وهرب جنوده واستسلم لرابح الذي نفذ فيه حكم الإعدام جزاء لما اقترف من وحشية(٣٦) ثم ظهر مقاوم آخر لسيطرة رابح ويدعى الشيخ أبو قنطور، هو زعيم ديني في تلك الأنحاء ودارت بينهما معركة ﮔاجيبو Gajeboo إلى الشرق من دكوا Dikoaولم يكن مصيره أفضل من مصير من سبقه (٣٧) .

وواصل رابح توسعه فسيطر بين عامي ١٨٩٣-١٨٩٤ على جميع مملكة بورنو وكانو، واتخذ مركزه في دكوا إلى الجنوب الغربي من بحيرة تشاد في حزيران(يونيو) ١٨٩٤ ، ثم زحف على زندر التي أبى سلطانها أن يدفع له الأتاوة التي كان يدفعها من قبل إلى سلطان بورنو، بيد إنه لم يحصل من وراء زحفه هذا على طائل. برغم وجود بعض الخيوط الواهية مثل انضمام حيات بن سعيد أحد أحفاد الشيخ عثمان في سوكوتو بقواته إلى رابح بعد أن علم بقدومه إلى الغرب وتأييده للدعوة السنوسية(٣٨) .

وشرع في غاراته على القوافل التجارية القادمة من طرابلس الغرب وبنغازي ونهبها ، مما أدى إلى إلحاق الضرر بهذا المرفق الاقتصادي المهم (٣٩) وقد سجلت التجارة بين غات وكانوا أو بين بورنو وطرابلس أخفض مستوى لها بين عامي ١٨٩٨و١٩٠٠ ، ونهب في عام ١٨٩٨ ما عدده ٨٠ حملاً من ريش النعام ، كانت تساوي ثروة كبيرة في ذلك العصر و ٣٨٠حملاً من الجلود بل فقد بعض التجار حياتهم فتوقفت التجارة بين طرابلس وكانو تماماً في حدود عام ١٩٠٠(٤٠)، "**قدم[رابح] لبرنوح وحاربها وكسرها، وبعد التكسر[كذا] دخلوا البروانة إلى البلاد وفيوها[إستباحوها]وخذو[كذا]جميع ما فيها من المال ، وقتلوا جميع عرب الطرابلسية التجارالذي[كذا] ببرنوح إلا الذي طال عمره،خرجوا منها نحو ستين راجل بين الطرابلسي والسوكني وعرب فزان ما نجاهم إلا خيولهم وسلاحهم**"(٤١).

ولم تعد تجارة الصحراء إلى ربع نشاطها السابق إلا بفعل الخفارة الفرنسية للقوافل التجارية بعد القضاء على دولة رابح، وكانت فرنسا تطمح إلى التحكم بهذا المرفق الحيوي في الصحراء الكبرى ، إذ قدر القنصل العام في طرابلس حجمها في عام ١٩٠٢بحمولة ١٢٠٠جمل أو ربع حجمها السابق أي ما يقارب ٤٠,000 جنيه إسترليني (٤٢)وكان الضرر الكبير الذي لحق بالتجارة من أبرز أسباب توتر العلاقات بين رابح وإمبراطورية الفلاني بعد أن أغار الأخير على دار زندر في شمال سوكوتو، ذلك أن الخليفة في سكوتو أمر بمنع المتاجرة مع بورنو، ولكن نجاح رابح كان محدوداً هناك بسبب الضغط الفرنسي بقيادة أميل گنتيل مما أدى به إلى الإقلاع عن الموضوع برمته لمواجهة الخطر الفرنسي الداهم(٤٣) .

وتحمل ١٥٠تاجراً طرابلسياً وبرقاوياً كانوا في برنو في وقت اجتياح رابح لممالك كانم وباگرمي وبرنو مغبة هذا الاجتياح، إذ وقفوا موقفاً لا يحسدون عليه واتهموا بمساندة الشيخ هاشم ملك برنو ومشاركته في الحرب وإمداده بالسلاح والذخيرة، ربما لأن بعضهم اشترك في القتال ضد رابح فعلاً، أو لأن البعض الآخر فر بأمواله عندما دهم هذا الأخير مملكة برنو باتجاه السودان الشرقي ، وفقد البعض الآخر تجارته أو قتل (٤٤)، "**وكذلك في برنو ذبح كثيراً من الطرابلسيين**

ربنا يحفظنا وإياكم آمين "(٤٥)، مما حمل رابحاً على الاعتقاد أنهم شاركوا في القتال ضده ، وبعث وراء من بقي على قيد الحياة منهم فأحضروا أمامه ، ومن بينهم محمد بن رحال ومحمد حورية ومحمد زقلام ومحمد الفيلالي وعبد الله بن الأشهر، وطلب منهم تبريراً لمشاركتهم في حرب لا تعنيهم ،"**لماذا تورطتم في هذه الحرب وأنتم أجانب في ديار الغربة؟**" فأجابوا أنهم أجبروا على ذلك وقدموا اعتذارهم، وقبل رابح منهم ذلك وطيب نفوسهم وعفا عنهم ، وظلوا بضيافته أربعة أشهر قبل منحهم تصاريح بالعودة إلى بلدانهم محملين بالهدايا والجمال لمن لا يملك جمالاً لنقل بضائعه برفقة قوة لحراستهم، بيد أنهم ما لبثوا أن وقعوا بأيدي حاكم واداي الذي اعتقد إنهم جواسيس عليه من رابح ، فسلب أموالهم وسبى جواريهم فخرج من بقي منهم حياً(٤٦).

كان رابح يهدف بالعفو عن تجار طرابلس وبنغازي ومرزق وغات إلى ما هو أكثر أهمية من معاقبة هؤلاء وهو إمداد دولته التي بلغت مساحتها حوالي ١٥٠ ألف كيلو متر مربع وضمت أكثر من ٥ملايين نسمة(٤٧) بما تحتاجه من ضروريات الحياة كالمواد الغذائية والألبسة والمواد الصناعية والأسلحة ، أو تمويل خزينته بما هي بحاجة إليها من أموال ، ولتقديره لأهمية التبادل في توفير هذه المستلزمات عمل ما في وسعه من أجل عودة التجارة التي تدنت بشكل واضح ، مع أقاليم شمال الصحراء إلى سابق عهدها(٤٨) .

أعتمد رابح في تمويل إمارته على موارد عديدة مثل ضريبة الرأس بمقدار دولار واحد على كل بالغ من الرجال قادر على حمل السلاح (٤٩) والزكاة والغنائم والأموال التي كان يأمر بمصادرتها والغرامات التي كانت تفرض على الحكام المحليين مثل تلك التي فرضت على حاكم زندر ومقدارها" **ألف خادم صغار [أمة صغيرة] وألف حصان ملاح وألف بندق فرضاً عليه وكرهاً عليه، وكذلك كتب لكنو ومندر وطلبهم يطيعوه والله يحسن العاقبة آمين [كذا]** " (٥٠) ، ومما يؤاخذ عليه أنه أعتمد على تجارة الرقيق المربحة في تمويل دولته وفي سد حاجة جيشه للأسلحة والذخيرة التي كانت تبادل بالرقيق ففي إحدى المرات اشترى ألف جمل محملة بالبارود من سلطان واداي (٥١) .

في مقابل ذلك أن اجتياح رابح لممالك حوض تشاد ألحق ضرراً كبيراً بتجارة القوافل من طرابلس وبنغازي ووادي النيل وتونس، إلى هذه الممالك ، وتضررت معها الحركة السنوسية ذات التأثير الفاعل عليها بتأمين الطرق التجارية على طول الصحراء وعرضها والتوسط لحل النزاعات التي كانت تقع بين الأسر والجماعات الاثنية المختلفة التي كانت تستوطن الأصقاع التي تمر من خلالها هذه الطرق، وتوفير الغطاء الشرعي والقانوني الذي كان التجار بحاجة إليه (٥٢)، وأصبحت تعتمد على هذه التجارة اعتماداً يكاد يكون مطلقاً في تزويد الزوايا السنوسية المنتشرة على مساحة الصحراء الكبرى من الجبل الأخضر حتى حوض بحيرة تشاد بضروريات الحياة وتوفير وفرة مالية معقولة من جراء مزاولة النشاط التجاري من قبل الاخوان السنوسيين ، أو من فرض رسوم تجارية على القوافل القادمة والغادية، أو من جراء أجور تخزين البضائع أو تلقي الهدايا والهبات من حكام هذه الممالك نتيجة للعلاقات الطيبة التي كانت تربط الطرفين كتلك العلاقة التي كانت تربط ملك وادي الذي كان نفسه سنوسياً ، بالشيخ السنوسي(٥٣)، والأكثر أهمية من هذا كله ، كانت السيطرة التي يفرضها السنوسيون على الطرق التجارية المترامية يعطيهم شعوراً بوحدة (إمارتهم) الهلامية على هذه الصحراء (٥٤) .

وكان من السهل على رابح اجتياح ممالك حوض بحيرة تشاد المتخلفة التي تنتمي إلى مرحلة ما قبل الحضارة الحديثة، بجيشه الذي صار يتسع ويتضخم باستمرار باستقطاب جماعات وأفراد كانت تنتمي إلى أجناس وقبائل شتى، من عرب من السودان مثل أولاد راشد والبقارة والتعايشة، ومن دارسولا والفولاني والسنغاليين والزنوج، وشكلت المجموعة التي

خرجت معه من السودان نواة هذا الجيش[٥٥]بيد أنه كان من الصعب عليه تماماً إدارة هذه المساحات الواسعة و إرساء أسس دولة حديثة يمكن أن تصمد أمام الأعداء المتربصين دون الاستعانة بالنظم الحديثة التي كانت قائمة في بناء الدول، فلم تتعدى دولته التي أقامها نظام قبيلة سودانية، أو إقليم مثل بحر الغزال (ديم الزبير) . ومن أولى التحديات التي واجهته هي بناء جيش حديث مدرب ومسلح تسليحاً حديثاً جيداً، في ظل الطبيعة الهجينية الهلامية لهذا الجيش ، فهناك خيالة ومشاة وصيادون لا يلزمهم رابح بشيء ما لم يلزموا به أنفسهم ، حيث كانت أعداد جنوده تتغير من معركة لأخرى وبالتالي من الصعب تقدير عدد فرقه أو البنادق التي يحتاجها أو تلك التي كانت لدى جنوده فقد اعتمد في ذلك الجانب على تجار الرقيق لتزويده بالسلاح، فهناك بنادق بفوهة واحدة وأخرى بفوهتين ، فضلاً عن بنادق المارتيني والوانچستر ريمنغتون أو ما كسبه من بعثة كرامبل المذكورة آنفاً من المسدسات والبنادق، بينما بقي الشطر الأكبر من ذلك الجيش يتسلح بالسيوف والرماح والقسي والسهام [٥٦] ، ومن الصعب أيضاً تقدير شكل القتال الذي بإمكان هذا الخليط غير المتجانس أدائه .

ولكن ليس من المستغرب أن يعتمد رابح في تنظيم جيشه على نظم الجيش المصري فقسمه إلى قسمين كبيرين تمركز أحدهما في العاصمة دكوا، وكان بقيادته شخصياً، فيما كان القسم الآخر تحت قيادة ابنه فضل الله ،وكل قسم من هذين القسمين مقسم بدوره إلى فرق أصغر، أسندت إداراتها إلى ضباط كانوا مسؤولين أمام رابح الذي كانت من مهامه إخضاع هذه الفرق إلى التفتيش في أيام الجمعة ومحاسبة الضباط المسؤولين ومعاقبتهم بالجلد إذا ثبت تقصيرهم [٥٧] وفي مقابل ذلك اعتمد اللامركزية الإدارية ليس عن وعي بجدوى هذا النظام بل لعدم وجود شريحة من الإداريين الذين من الممكن الاعتماد عليهم في إدارة الأقاليم التي تشكلت منها دولته ، ولم يمهله أعداؤه لأعداد مثل هذه الشريحة لذا اعتمد على الشيوخ والنبلاء وزعماء القبائل المحلية في الإدارة والقضاء الذي بقي يستند إلى الشريعة الإسلامية التي اضطلع الشيوخ بتطبيقها ، أما هو (الأمير)فترأس مجلساً استشارياً يخضع حكام الأقاليم والقضاة للمحاسبة أمامه[٥٨]، وربما كان امتداداً لمجالس القبائل في السودان . وجاءت نتائج تلك الإجراءات مشجعة فاستتب الأمن ، وقضى على مظاهر الانحراف الخلقي التي كانت سائدة في تلك المجتمعات من قبل وازداد تمسك الناس بقيم الدين الإسلامي[٥٩] ، على الرغم من المدة القصيرة التي حكم بها تلك المجتمعات ، وكان حرياً به أن يجبر التجار على الإقلاع عن تجارة الرقيق ، بدل أن يجعلها إحدى أهم مرتكزات نظامه الاقتصادي، وأعطى بذلك الذرائع للمستعمرين (إن كانوا بحاجة إلى ذرائع) للقضاء عليه .

وتقرب رابح من السنوسيين وهم قوة لا يستهان بها في الصحراء الكبرى، المعادين بدرجة عصية على التذليل لرجال الاستعمار الأوربي، وعلى الرغم من طابع دعوتهم السلمي ، كان لهم ثار عند الفرنسيين، ومن المرجح إنهم هم من استدرج رابح إلى حوض بحيرة تشاد ، بعد أن دفعه الانكليز والحكومة المصرية عن السودان، لذا نقل الشيخ محمد المهدي السنوسي مركز دعوته من الجغبوب إلى الكفرة في عام ١٨٩٥ لأسباب كثيرة ، لست بصدد تفصيلها ، منها ليكون مقره قريباً من الخطر الفرنسي الداهم ، ثم نقل مقره مرة أخرى إلى إقليم گورو ليكون أكثر قرباً من هذا العدو الذي تقدم من غرب أفريقيا إلى حوض بحيرة تشاد في عام ١٨٩٩م . وشابت مواقف الشيخ محمد المهدي السنوسي إزاء حركة رابح بعض الغموض وعدم الوضوح ففي بداية الأمر تحالف رابح الباحث عن غطاء ديني لحركته من أي نوع ، مع السنوسيين الباحثين عن حلفاء من أي نوع لمواجهة الزحف الفرنسي القادم إلى الصحراء من الجزائر أو من الغرب، وعُمد هذا التحالف بعقد زيجة بين فضل الله نجل رابح وخديجة ابنة محمد المهدي السنوسي[٦٠] ، ويبدو أن قتل المبعوث الفرنسي بول كرامبل آنف الذكر الذي تنصل منه السيد السنوسي كان ثمرة لهذا التحالف.

ولكن ففي اجتياح رابح لإمارات دار سيلا ودار رونگا التابعتين اسمياً لسلطنة واداي وعدم تلبية سلطان واداي حليف السيد السنوسي التقليدي لنداء رابح بالتحالف أو الإجارة ، ومهاجمة الأخير لمملكة واداي واقتطاع إمارتين أخريين

هما دار تاما ودار الكوتي، وضع السيد السنوسي في موقف حرج لاسيما بعد أن طلب منه سلطان واداي في رسالة له الدعم والنصح والإرشاد، فبدا عليه وكأنه مسك العصا من المنتصف فأشار عليه بالوقوف موقف المدافع أمام رابح وعدم مهاجمته [٦١]، رغبة من الشيخ السنوسي بعدم اهراق الدماء الإسلامية سدى ، وعدم التفريط بأي منهما، هذا أولاً ، وثانيا ربما أدرك السيد السنوسي بثاقب بصيرته أن نشاط رابح في حوض بحيرة تشاد ربما يسرع بقدوم الفرنسيين المجروحين بكرامتهم بعد مقتل مبعوثهم بول كرامبل إلى المنطقة، كما أدرك أيضاً أن القوى الإسلامية المتناحرة على اختلاف توجهاتها لا قبل لها بالقوة الفرنسية العاتية، لذلك كان السيد السنوسي حذراً جداً في تعامله مع مختلف الأطراف بما في ذلك رابح ، مما دفع البعض إلى الاعتقاد بأن السيد السنوسي تحالف مع الفرنسيين ضد رابح [٦٢].

أسرعت الحكومة العثمانية التي أحدث لديها رابح باجتياحه لحوض بحيرة تشاد قلقاً كبيراً من جراء ما أحدثه من تداعيات، باستدعاء مينا آدم Maina Adem زعيم قبائل التبو في التبستي عام 1897 بواسطة مبعوث من لدن أحمد راسم والي طرابلس للتباحث معه في الطريقة التي يمكن للحكومة العثمانية تحصين هذه المنطقة المهمة ضد زحف رابح ، أو القوات الفرنسية بإقامة حامية تركية فيها، برغم كراهية الوالي المذكور لمثل هذا النشاط ، باعتقاده أن ملكية هذه المناطق لا تساوي النفقات والجهود المبذولة من أجل ضمها أو حمايتها [٦٣]، ولكنها في الوقت نفسه نأت بجانبها عن التدخل في الصراع الدائر في الصحراء وتركت هذا الأمر للسيد السنوسي لتسوية العلاقة مع رابح، من جانب ومع إمارات جنوب الصحراء من جانب آخر[٦٤].

ومن غير المؤكد أن الدولة العثمانية ذات العلاقات الدولية المتشابكة والمشكلات الداخلية المركبة ، وظفت رابح في الصراع بالنيابة عنها ضد فرنسا . ويبدو أن الذي اضطلع بهذه المهمة هو السيد محمد المهدي السنوسي[٦٥] ، الذي لا يريد هو الآخر الظهور بمظهر المقاوم للتقدم الفرنسي وأن يبتعد عن الطابع السلمي لدعوته ، قبل أن يشهد نهاية نضال رابح ضد الفرنسيين ، فترك هذه المهمة للإخوان السنوسيين مثل عبد الله بن فضيل(الطوير)[٦٦] وسيدى براني ومحمد بن عبدالله السني الذي وصل إلى جنوب الصحراء منذ عام ١٨٩٦، وهو من الإخوان السنوسيين المتحمسين الذي أسس مجموعة من الزوايا السنوسية في كانم وقرو وأنقميمي وبئر العلالي[٦٧]. ويبدو أن التعاون الذي حصل بين رابح والسنوسيين ومن ورائهم الدولة العثمانية كان حتمياً بعد عام ١٨٩٧، بسبب خطر تقدم الفرنسيين الذين أصبحوا أكثر حرصاً على اخضاع حوض بحيرة تشاد لسيطرتهم لتطبيق اتفاقاتهم مع الدول الاستعمارية الأخرى . ومما له دلالة كبرى في ذلك أن رابح كان يرفع الراية العثمانية في معاركه ضد فرنسا، لاسيما في المعركة الأخيرة[٦٨].

في عام ١٨٩٥ ترددت الإشاعات بأن رابحاً سوف يهاجم كانو ، مما أثار الرعب في الإمارات الشرقية لدولة سوكوتو، لذا أصدر سلطانها أوامره بعدم التعامل تجارياً معه بعد الصداقة التي كانت تربطهما في عام ١٨٩٤ لاسيما بعد الزيارة التي أسداها رابح للخليفة في سوكوتو [٦٩]، وهنا يمكن تقدير الأضرار التي يمكن تلحقها الأصابع الخفية بالعلاقات بين الدول الإسلامية ، فقد كان رابح يسعى لإيجاد منافذ لتجارته التي في تضررت كثيراً وتضرر معها اقتصاده ، من خلال إمارة ميسو إحدى إمارات شرق سوكوتو[٧٠] ، وهدد سلطان كانو باجتياح إمارته إذا رفض التعاون معه ، وفعلاً هاجمت قواته في عام ١٨٩٧هذه الإمارة وهرب أميرها، وأثار بذلك فوضى عارمة في الأقسام الشرقية من دولة سوكوتو التي وقفت عاجزة عن مقاومة هذا المغامر الجسور، ولم ينقذها من جيشه سوى الجيش الفرنسي الذي تقدم إلى الجنوب الشرقي من دولته لاسترجاع باگرمي من قبضته بعد أن وقع سلطانها معاهدة صداقة وتحالف مع جنتيل في عام ١٨٩٧ [٧١] .

وكان رابح يشكل عقبة رئيسة أمام تحقيق الفرنسيين لتنفيذ مشروعهم الاستعماري الضخم في غرب ووسط أفريقيا جنوب الصحراء ، لذلك لم يدخروا وسعاً في تكليف الزبير باشا المقيم في القاهرة للتوسط لدى رابح تابعه السابق من أجل تخفيف الوطأة عليهم في حوض بحيرة تشاد[٧٢]،شأنهم في ذلك شأن البريطانيين الذين كانوا أكثر حنكة في التعامل مع الشعوب المغلوبة، فبالرغم مما أثاره رابح من قلق ومخاوف لديهم من خلال تهديده لدولة سوكوتو وشمال نايجريا ، بيد أنهم لم يحركوا ساكناً وفضلوا الدخول معه في علاقات طيبة من خلال التأثير على سيده القديم الزبير باشا، لاسيما بعد ورود أنباء عن رسالة بعث بها رابح إلى الزبير في القاهرة حملها أحد الحجاج القادمين من كانو في عام ١٨٩٣ زف فيها إليه انتصاراته في حوض بحيرة تشاد[٧٣] ، وتنبه رابح ومن ورائه الزبير إلى خطة البريطانيين والفرنسيين ، فأعلن إنه يعمل باستقلالية تامة عن الزبير باشا الذي أعلن هو الآخر أن لا علاقة تربطه برابح [٧٤].

وكان البريطانيون الذين هالهم بعد المسافات ووعورة الطرق وقسوة المناخ في حوض نهر النيجر وبحيرة تشاد التي تعد مقبرة البيض، وعظم الخسائر التي يمكن لرابح أن يلحقها بقواتهم القليلة والخسائر المادية التي تترتب على إرسال المزيد من القوات إلى المنطقة، كانوا بانتظار ما تسفر عنه العمليات الفرنسية ضد رابح[٧٥] ، والعمل على قطع الطريق أمام أي تقارب محتمل بين الطرفين ، لاسيما بعد سعي فرنسا لكسب ود رابح بحصولها على خطاب موجه إليه من الزبير باشا في القاهرة على أمل منها أن يصل إليه ويقبل التعاون معها بتوقيع معاهدة حماية أو صداقة أو شيء من هذا القبيل [٧٦] ، والتهيؤ لاستثمار ما تسفر عنه نتيجة المعركة الفرنسية المحتملة مع رابح ، بالسيطرة على طرق المواصلات التي كانت تربط السودان الشرقي بحوض بحيرة تشاد بعد القضاء على رابح ودولته، الذي كان هدفاً بريطانياً بعد القضاء على الثورة المهدية ، كما هو فرنسياً بعد أن تحول هذا المغامر الجسور إلى عقبة كؤود في سبيل الدولتين لتحقيق أهدافهما في وسط أفريقيا مثل تقسيم المنطقة وتحديد الحدود بين ممتلكاتهما ومد طرق المواصلات هناك ففي ٢١آذار(مارس) ١٨٩٩ اتفقت بريطانيا مع فرنسا بعد هزيمة الأخيرة في فاشودة وخروجها من السودان الشرقي في أيلول(سبتمبر)١٨٩٨، على تقسيم المنطقة الممتدة من الكونغو حتى طرابلس الغرب ،على أن تأخذ فرنسا مناطق شمال وشمال شرق بحيرة تشاد وتبستي التي تربط الممتلكات الفرنسية في أفريقيا وتعطي فرنسا أفضلية في السيطرة على طرق القوافل بين المنطقة وموانئ البحر المتوسط الأفريقية، وهو اتفاق تفصيلي لمؤتمر أبكر وذو صفة دولية أوسع هو مؤتمر برلين بشأن أفريقيا في ١٨٨٤ـ ١٨٨٥، لذا أصبح تنفيذ هذه المعاهدة هدفاً إستراتيجياً فرنسياً مرتبطاً بالقضاء على حركة رابح [٧٧] .

رابح يسير بامبراطوريته إلى حتفها :-

على الرغم من تصميم فرنسا على القضاء على الممالك الإسلامية في حوض بحيرة تشاد ودمجها ضمن أملاكها في أفريقيا منذ زمن طويل قبل دخولها مع بريطانيا في معاهدة ١٤ حزيران (يونيو)١٨٩٨التي أعادت فيها الدولتان اقتسام أفريقيا، والتي عدت معاهدة آذار (مارس) ١٨٩٩تفسيراً لها في بحيرة تشاد، لصالح فرنسا تعويضاً لها عن هزيمتها في فاشودة ، تحت ضغط روسيا على الدولة العثمانية في القفقاس بشأن الأرمن، وضغط ألمانيا على بريطانيا لصالح البوير في جنوب أفريقيا[٧٨] ، فاتخذت(فرنسا) من لجوء عبد الرحمن گاورنغ سلطان باگرمي إلى القائد الفرنسي اميل گنتيل آنف الذكر فرصة لا تعوض في سبيل تحقيق هدفها ،فاغتنمها الأخير دون تردد بعقد اتفاقية حماية معه في ١٧ تشرين الأول (أكتوبر)١٨٩٧ ، كما عقد سلسلة من الاتفاقيات المماثلة مع شيوخ القبائل التي كانت تقطن على ضفاف نهر شاري، فما كان من رابح إلا أن قام بهجوم ثأري لاحتلال ماسينا عاصمة باگرمي وأخذ الزعماء الذين وقعوا الإتفاقيات مع گنتيل، ثم تقدم لملاقاة القوات الفرنسية في تلال تجباو بقيادة الضابط البحري الفرنسي الملازم بريتونيه Bretonnet،

فتمكن بقواته من سحقه مع قواته في معركة (مذبحة) تجباو مع قوة گاورنغ المتجحفلة معها في ١٧آب(أغسطس)١٨٩٩، ولقي القائد الفرنسي المذكور مصرعه ، وبذلك كسب رابح هذه الجولة مع الفرنسيين وأستعد لجولة أخرى [٧٩].

كانت معركة تجباو صدمة كبيرة لرجال الاستعمار الفرنسيين لاسيما لأميل غنتيل الذي أبحر قبل وقوعها من فرنسا في ١٥شباط(فبراير)١٨٩٩،تحسباً لأسوء التوقعات، فوصل إلى مدينة كنو في ٣٠ آذار(مارس) من نفس العام ، بقدر ما حملت من معاني الفخر لرابح ورجاله، لذا صمم گنتيل على الانتقام لسمعة فرنسا ، وصار يتهيأ للمعركة الفاصلة التي بدأت بوادرها بالتراشق بطلقات المدفعية ورصاص البنادق في ٢٨ تشرين الأول (أكتوبر)١٨٩٩، في تلال تجباو، ولما اشتدت الهجمات الفرنسية تسلل جنود رابح إلى داخل مدينة كانو ، فتعقبهم الجنود الفرنسيون إلى داخل المدينة، ودار القتال من شارع إلى شارع ومن منزل إلى آخر، واستمرت المعركة ثماني ساعات واستنزفت قوات رابح استنزافاً شديداً وقتل عدد من خيرة قواده مثل عثمان بن شيكو والفقيه أحمد باكر وأرباب أبو بكر وجرح قائد الحملة الفرنسية الميداني الكابتن روبيللوRobillotجرحاً بليغاً ، وتمكن الفرنسيون إلى دفع قوات رابح إلى خارج المدينة بعد أن تحولت إلى كومة أنقاض ،بيد أن معركة كانو لم تحسم الصراع بين الطرفين على الرغم من الخسائر الكبيرة التي منيا بها، وانسحب القائد الفرنسي روبيللو عائداً إلى مدينة أرشمبولت ، وتقدم رابح وبقايا جيشه إلى بلدة ميلتو ومنها إلى لوگون ثم إلى دكوة التي لم يقم بها طويلاً وتقدم منها إلى قوسيري (كوسيري)استعداداً للمعركة الحاسمة[٨٠] .

وأصدرت الحكومة الفرنسية أوامرها إلى قواتها المرابطة في السودان الأوسط فتقدمت نحو بحيرة تشاد بقيادة جولاند Joalland فوصل في أواخر نيسان (أبريل) في عام ١٩٠٠ إلى منطقة گولفي وهي قرية على الضفة اليسرى لنهر شاري، ولا تبعد عن مجرى النهر إلا قليلا. وفي الوقت نفسه تحركت وحدة عسكرية أخرى من ورقلة في الجزائر كانت تحت إمرة فورو Foureau الذي كان يعرف المنطقة من خلال رحلاته الاستكشافية وكانت مكونة من ١٠ ضباط و٣٠٦ جندي بقيادة المقدم لامي Lamy وكان عليها الوصول إلى زندر عن طريق تماسنين ، وتحرك إميل گنتيل من أرشمبولت ، على أن يكون لقاؤهم بالقرب من جولفي حيث كان فضل الله بن رابح معسكراً هناك [٨١] .

وواصل المقدم لامي سيره إلى قوسيري معسكر رابح الرئيس تاركاً جولفي وراءه ، وما أن رأى مدينة قوسيري حتى قرر الهجوم عليها بفرقته دون انتظار وصول القائدين الآخرين، وكانت معركة قوسيري مذبحة لجيش رابح وللمواطنين في المدينة على حد سواء فقتل من قتل وغرق من غرق قبل أن يصل رابح من العاصمة دكوة إلى المدينة المنكوبة[٨٢] ، التي جمعت في هذا الوقت القادة الفرنسيين الثلاثة بأخلاط من الجند مثل الجزائريين الذين جاء بهم لامي والسنگاليين والباگرميين بقيادة عبد الرحمن غاورنگ وعسكر رابح بالقرب منها في حصن على ضفاف نهر شاري في مكان مرتفع استعداداً للمعركة المصيرية التي بدأت في يوم ٢٢نيسان (أبريل)١٩٠٠، عندما تقدم المقدم لامي إلى المواقع الأمامية ونتيجة لذلك تبادل الطرفان إطلاق النار، وبعد مدة قصيرة تمكن الفرنسيون بأسلحتهم الحديثة من اجتياح الحصن وإضرام النار في الأكواخ المبنية من القش فتحول إلى كتلة من اللهب، ودفع رابح وجيشه إلى ما ورائه بعد خسائر هائلة بالأرواح بين أتباعه، لاسيما بين رجال الطرق الصوفية الذين وقع كثير منهم بالأسر، بيد أن رابح لم يتوقف عن المقاومة ومعاودة الهجوم على الفرنسيين، فقصد القائد الفرنسي لامي وأرداه قتيلاً بطلق ناري من بندقيته ، ولم يلبث طويلاً حتى أصيب هو الآخر بجرح مميت، وسقط مرتثاً بين القتلى والجرحى ليقوم أحد الجنود بإطلاق النار على رأسه وأغمض عينيه إلى الأبد بعد أن لقن الفرنسيين دروساً في الشجاعة والإقدام [٨٣] .

كانت حركة رابح جزءا من الصراع الدولي للسيطرة على الصحراء الذي احتدم في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، ولم يكن هو من أبناء المنطقة ، ولكنه رفع الأعلام العثمانية في معركه ضد الفرنسيين لاسيما في معركة قوسيري كما أشرت إلى ذلك سابقاً [٨٤]، بيد إنه لا أحد بإمكانه الجزم بأن علاقات من أي نوع قامت بين الطرفين، سوى العلاقة المشوشة وغير الأكيدة التي تربطه بالسنوسيين الذين كانت علاقتهم بالدولة الثمانية غير مؤكدة أيضاً، لاسيما وأنه أجهز بحركته على أمراء وسلاطين سنوسيين مثل سلطان كانم باكرمي ووداي وزندر وكانو[٨٥]مما يدل على أن حركة رابح كانت مغامرة غير محسوبة النتائج، وكان هو بحاجة إلى أي دعم من أي نوع لحركته، ديني أو سياسي أو استعماري من البريطانيين ، الذين لم يسرهم النجاح الفرنسي بالقضاء على رابح وحركته على، الرغم من الاتفاقين السابقين الذين عقدا بين الدولتين في عامي ١٨٩٨و ١٨٩٩آنفي الذكر ، لذا وقفوا في حالة ترقب عما تسفر عنه المعركة الأخيرة بين الطرفين، لاسيما أن الفرنسيين لم يفلحوا بعد في القضاء على ولدي رابح وذيول حركته بعد قتله.

كان فضل الله بن رابح عند مقتل والده في مدينة لوگون على رأس قوة من جنود والده المتسربين من معركة قوسيري، وأسرع عائداً إلى العاصمة دكوة ، ولكنه خرج منها تحت ضغط الفرنسيين، في ظروف سوقية سيئة فهو يعاني من قلة الأنصار والسلاح ، وأدرك ليس بإمكان احد أن ينقذه مما هو فيه وأن يقف بوجه الفرنسيين سوى البريطانيين، لذا راسلهم معرباً عن رغبته بفتح صفحة جديدة معهم[٨٦] ،وبدأت سلسلة من المراسلات مع البريطانيين ، أحدثت ردود أفعال ومقترحات مختلفة، منها تقوية فضل الله الذي لم يزل قوياً بصحبة عدد من الرجال الأقوياء، وتعيينه أميراً على برنو ودعمه بقوة بريطانية من غرب أفريقيا من أجل الوقوف بوجه الفرنسيين،الذين كانوا يطاردونه دون هوادة من مكان لآخر[٨٧]. لاسيما، أنه أظهر استعداده لأن يحكم بورنو تحت إشراف مقيم بريطاني ، وأنه يعتمد على الدعم البريطاني في أن يحل محل والده معرباً الوفاء لهم مادام على قيد الحياة [٨٨]ووافقت الحكومة البريطانية على طلبة بالاعتراف به حاكماً على برنو شريطة أن يلتزم بمكافحة تجارة الرق وتنمية التجارة واحترام الحدود الدولية وأن يقبل نصائح المقيم البريطاني [٨٩] .

وكان قبول بريطانيا لمقترح فضل الله بالحكم تحت إشراف مقيم بريطاني إحراج كبير للفرنسيين وعرقلة لمخططاتهم بالسيطرة على حوض بحيرة تشاد، إذا أسرعوا بتعقبه والقضاء عليه بعد سلسلة من الصدامات معهم وهزيمته لغرباي المنصب على بورنو من قبلهم أكثر من مرة ودخوله دكوة ، وعينوا القائد ديستناف Destanave للقضاء عليه ، فتابعة إلى دكوة فلم يظفر به إذ أخلاها قبل أن تبلغه القوة الفرنسية، بيد أن ديستناف أرسل بقوة دهمته في قوجبة في النيجر وتمكنت من قتله في تشرين الأول (أكتوبر)١٩٠١، واضطر أخوه نيابي بن رابح وجماعة من أتباع أخيه أن يستسلموا للفرنسيين[٩٠] وهكذا أجهز الفرنسيون على سلطنة رابح تحت نظر البريطانيين وسمعهم وكان بإمكانهم تقديم المعونة لذا المقاتل الجريء ولأبنائه لإقامة حكم أكثر حداثة من الحكم الذي أقامه رابح ، وتخليص منطقة بحيرة تشاد من حكم فرنسي غاشم رغم أن "**المستعمرين أخوة**"، ولم يحركوا ساكناً أكثر من مطالبتهم بإرسال قوة محلية للحفاظ على المصالح البريطانية في برنو [٩١] .

ولم يستقم الأمر لفرنسا في ممالك بحيرة تشاد إلا بعد هزيمة رجال الحركة السنوسية الذين تزعموا حركة الجهاد ضد المستعمرين الفرنسيين،وكان بين هؤلاء عدد من كبار المجاهدين من أمثال الشيخ محمد المهدي بن محمد السنوسي الكبير زعيم الدعوة (الإمارة)الذي نقل مقر حكمه إلى گورو في اشتداد المنزلة بين رابح والفرنسيين ، وكان بإمكانه أن يؤدي دوراً أكثر فاعلية وخطورة بدعمه في ذلك الموقف الحرج ، وأن لا يترك الفرصة للقادة الفرنسيين بالإجهاز عليهم الواحد تلو الآخر، وأن على أولئك المجاهدين من كبار قادة الدعوة السنوسية من أمثال محمد بن عبد الله السني الذي إليه يرجع الفضل في نشر مبادئ الحركة السنوسية في جهات تشاد منذ عام ١٨٩٦، والزعيم الطارقي الأكزكزي محمد كاوصن بن

عدَا الذي كان على علاقة وثيقة بالسيد أحمد الشريف السنوسي ،والمجاهد التشادي قجة بن عبد الله ، والمجاهد الكبير عمر المختار الذي كان بحق أعظم المناضلين ضد الاستعمار الغربي ليس في تشاد فحسب بل في عموم أفريقيا، والفضيل بو عمر وعبد الله الطوير وأحمد آمود وموسى أندمرموقا والشيخ البراني الساعدي وغيرهم[٩٢]ولم يتمكن الفرنسيون من طرد هؤلاء من تشاد إلا بعد الغزو الإيطالي لطرابلس وبرقة في عام ١٩١١ وأصبح جهادهم في هذين الإقليمين فرض عين .

الخاتـــــــــــمة

يتضح مما تقدم أن رابح بن فضل الله الذي تقدم باتباعه غرباً إلى حوض بحيرة تشاد حيث عمل بغير أرضه ، وأن تغاضيه عن العودة إلى ساحة نضاله الحقيقية أوقعه في فخ المغامرة ، التي أسبغها على حركته مما جعل مشروع القضاء على حركته مصلحة عامة للقوى الاستعمارية التي لا يقف أمامها أمثال رابح ،بالتحالف مع القوى المحلية والممالك القبلية والنظم السياسية التي قوضها رابح لتأسيس امبراطورية ضاربة الأطناب، وعلى الرغم من ذلك فلم يكن من السهل عليه وضع نظام حديث أو قوانين حديثة لهذه الامبراطورية، ففي الوقت الذي كان فيه رابح يمتلك جيشاً مسلحاً ، فلم يكن بمقدوره وضع اسس لعلاقات خارجية أي استحداث وزارة تضطلع بهذا الدور لها قدرة على ادراك وفهم سياسة التفاوض ، لذا يمكن القول أن النظام في هذه الامبراطورية لا يتعدى نظام قبيلة من القبائل الرحل في السودان ، فلم يتمكن أن يؤسس عاصمة دائمة تكون مقراً للحكم المرتبط بشخصه تحديداً.

لقد دمر رابح نظاماً اقتصادياً كان قائماً منذ مئات السنين على التبادل التجاري في إطار تجارة الصحراء وتجارة الرقيق البغيضة ، بيد أنه فشل في اقامة نظام اقتصادي أكثر حداثة قائم على التبادل التجاري والاستيراد والتصدير وتنشيط الزراعة وتربية الحيوانات لأغراض التبادل التجاري . كما أن تدمير الممالك القبلية وتخريب النظام الاقتصادي القائم دفع بقوى مختلفة لأن تتحالف ضده تحالفاً مصيرياً بما في ذلك رجال الطرق الصوفية صاحبة المصلحة الحقيقية في حركته ، ففي الوقت الذي كان في الجيش الذي قضى عليه بقيادة فرنسية ، كانت عناصر هذا الجيش من الأفارقة المسلمين .

لقد فشل رابح كما فشل السيد السنوسي وفشلت معهما القوى المحلية والدولة العثمانية من اقامة جبهة موحدة قوية ضد فرنسا، ولو حدثت هذه الجبهة قبل حادثة فاشودة والاتفاق الفرنسي البريطاني بشأن الصحراء الأفريقية في عام ١٨٩٨ لحصلت على الدعم المستتر البريطاني ، طالما أن هذه الجبهة بعيدة عن مواجهة النشاط البريطاني في سودان وادي النيل، وبذلك أعطيت فرنسا فرصة ذهبية في تصفية هذه القوى الواحدة تلو الأخرى، وفي نهاية الأمر وجد السنوسيون أنفسهم وجهاً أمام فرنسا، بينما لم تحرك الدولة العثمانية حامية المسلمين، التي حارب رابح حليف السنوسيين باسمها ساكناً، ورضيت من الغنيمة بالسلامة، سلامة لم تطل .

الهوامش :-

١ عبد الله التعايشي (١٨٤٦-١٨٩٩): هو خليفة محمد أحمد المهدي السوداني، ولد بدار التعايشة في قرية أم دافوق بجنوب دارفور ، نشأ في طفولته بمسجد أجداده وقد كانوا حملة قرآن، وفد جدهم الأكبر محمد القطب الواوي من تونس ذات المركز العالي في الصوفية آنذاك إلى دار التعايشة بدارفور، ثم رجع إلى تونس حيث توفي، ودفن بمدينة القيروان هناك ولا يزال ضريحة مزارا لمريديه، وأعقب المهدي في حكم السودان بعد وفاته في ٢٢ يونيو ١٨٨٥ وحتى تاريخ مقتله بأم دبيكرات يوم الجمعة ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩، ساند المهدي وشجعه للخروج واعلان ثورته.للتفاصيل ينظر :ابراهيم فوزي، السودان بين غردون وكتشنر، (القاهرة : مطبعة جريدة الموبد ، ١٣١٩هـ) ، ج١.

٢ هناك من يعتقد بأن قبيلة فونجي هي من بقايا العباسيين ، أو من قبيلة جعلي(جاء علي) ولا تدل ملامح وقسمات رابح على الأصل العربي، بل يقال أن رابح كان عبداً في تلك القبيلة، بيد أنه اقترف جريمة قتل والتحق بالزبير رحمة الذي أسبغ حمايته عليه .

(٣) اختلطت الحقيقة بالأسطورة في نسب رابح بن فضل الله ، ربما كان المقصود بأبيه ، الزبير باشا ، لأن أباه مات وهو لم يزل يافعاً . صادق المؤيد العظيم، رحلة في الصحراء الكبرى الأفريقية ، ترجمة عبد الكريم أبو شويرب ،،(طرابلس: د.م،١٩٩٨)، ص١٦٢.

(٤) المصدر نفسه ،ص١٦٢-١٦٣ ؛ Djama Arbab Barikir ,L ' Empire de Rabah, (Paris, 1950), p.7

عبد الرحمن عمر الماحي ، تشاد من الاستعمار حتى الاستقلال ، (القاهرة : الدار المصرية العامة للكتاب ،١٩٨٢)، ص١١٦ ؛ عبده بدوي ، شخصيات أفريقية، (القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية ،د.ت)، ص٢٢

٥ هي فرقة شاركت في حرب استقلال المكسيك سنة ١٨٦٣ دعمًا للإمبراطور ماكسيمليان الأول . المدعوم من فرنسا . ضد الثورة الوطنية التي قامت ضده. سافرت الفرقة والتي يتكون اغلب جنودها من السودانيين سنة ١٨٦٣ وعدد جنودها ٤٥٣ وعادت في ٨ يناير ١٨٦٧ بعد أن فقدت ١٤٠ جنديًا، مات ٤٦ منهم من المرض. ينظر: حرب استقلال المكسيك ، شبكة المعلومات الدولية www.ar.wikipedia.org/wiki .

٦ نقلاً عن عبد الرحمن الرافعي ، عصر إسماعيل ، ط٤(القاهرة : دار المعارف، ١٩٧٨) ج١،ص ٤٣- ٤٤ ؛ Encyclopedia Britannica, Rabih az Zubayr ,https://en.wikipedia.org.

(٧) Encyclopedia Britannica, op. cit.; Djama Arbab Barikir, op. cit., p.7 .

(٨) أنظر رسالة من إمحمد حيدة (كانو،في ١٨٩٣) إلى أحمد بن محمد هيبة(غدامس) بشأن غزوات رابح فضل الله على برنو،

وثيقة رقم ٨٢، في مجموعة بشير قاسم يوشع ،وثائق غدامس ، رقم ٢، (طرابلس، ١٩٩٥) ص٢٠٨- ٢١٠ .؛ أنظر كذلك شكيب أرسلان ، سلطنة رابح ، في لوثروب ستودارد ، حاضر العالم الإسلامي ، ترجمة عجاج نويهض،الجزء الثالث ،ص٦٢ .

[٩] نقل لنا نعوم شقير مقتطفات من مقابلة له مع الزبير تبين ضحالة معلومات الزبير عن أصله " أنا الزبير بن رحمت بن منصور . . . بن غانم العباسي ، هاجر أجدادي العباسيون بغداد بعد هجوم التتار عليها عام ٦٧٦[٦٥٦] هجرية،١٢٧٨ [١٢٥٨] م ، فأتو مصر فوجدوا الفاطميين حكاماً فيها فلم يطيقوا البقاء فيها فنزحوا إلى السودان " وغير ذلك من المغالطات التاريخية ، التي شملت نشاطه المشبوه في بناء امبراطورية تجارية واسعة تحولت إلى نشاط سياسي شمل جانباً مهماً من السودان . أنظر نعوم شقير، تاريخ السودان ، تحقيق محمد ابراهيم ابو سليم ، (بيروت : دار الجيل ، ١٩٨١)، ص٢٥٨، وما بعدها .

[١٠] نعوم شقير ، جغرافية وتاريخ السودان ،(بيروت : دار الثقافة ،١٩٦٧) ، ج١ ،ص٦٧ ؛ أنظر كذلك جعفر عباس حميدي ، تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر ،(عمان ،٢٠٠٢)،ص٦٣ .

[١١] William Everett, A Short History of Rabih Zubeir (secret) ,Colonial Office(C.O.)537/11,Africa, No.2, December 12,1889, Written for the Intelligence Division of War Office ,(London),p.1 .

([١٢]) شوقي عطاالله الجمل تاريخ سودان وادي النيل منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر، الجزء الثاني ،(القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٨٢)، ص١٦٩-١٧٠ .

[١٣] نعوم شقير ، تاريخ السودان ، ص٢٨١.٢٦٦ .

[١٤] المصدر نفسه ، ص٢٧٤ ؛ شوقي عطا الله الجمل ، المصدر السابق ،ص١٧٠ ؛ سعد الدين الزبير، إمبراطورية رابح ، مذابح الاستعمار الفرنسي في السودان ، (القاهرة : د.م، ١٩٥٣)،ص٢٥-٢٧ .

([١٥]) سعد الدين الزبير، الزبير باشا رجل السودان ،(القاهرة : شركة ستاندرد،١٩٥١)، ص٤٩ ؛ William Everett, op. cit., p.2

انظر كذلك جعفر عباس حميدي ، المصدر السابق ،ص٦٣ .

[١٦] أنظر كذلك ،محمد فؤاد شكري ،مصر والسودان ـ تاريخ الوحدة السياسية لوادي النيل في القرن التاسع عشر (القاهرة : دار المعارف،١٩٥٧)، ص١٥٣.١٤٩ .

[١٧] Free Encyclopedia, op. cit. ;

عبد الله عبد الرازق ابراهيم ،الإسلام وتحدي الاستعمار الأوربي في أفريقيا ،الطبعة الثانية ،(القاهرة ، ١٩٩٧)، ص١٨٥ .

([١٨]) R.et.M.Cornevin ,Hstoire de L'Afrique ,(Paris,1964),p.309-310 .; R. A. Adeleye , Power and Diplomacy in Northern Nigeria,(London,1971),p. 170 ; جعفر عباس حميدي ، المصدر السابق ،ص٦٣ .

([١٩])عبد الرحمن عمر الماحي ، المصدر السابق ،ص.١١٧ ؛ عبد الله عبد الرازق ابراهيم ، المصدر السابق ، ص١٨٧.

[٢٠] نعوم شقير ، تاريخ السودان ، ص٤٨٥ .

٢١ سعد الدين الزبير ، امبراطورية رابح ، ص ٤٨ .٥٠ ؛ شوقي عطا الله الجمل ، تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها (القاهرة،١٩٨٠)، ص٥١١؛جعفر عباس حميدي ، المصدر السابق، ص٦٤.

(٢٢) عبد الله عبد الرازق ابراهيم ، المصدر السابق ، ص١٨٧ ؛ Free Encyclopedia Britannica ,op. cit.,

٢٣ نعوم شقير ، تاريخ السودان ، ص٦٩٨- ٧٠٧ . William Everett ,op. cit., p. 2 .

٢٤ نقلاً عن نعوم شقير ، تاريخ السودان ، ص٣٠٠.

٢٥ نقلاً عن المصدر نفسه ، ص٦١١ .

٢٦ نقلاً عن المصدر نفسه، ص ٦٨٨ .

(٢٧) عبد الله الرازق ابراهيم، المصدر السابق، Y. Urvoy, Histoire de l' Empire du Bornou ,(Paris,1949),p.1 p.126; ص١٨٧ .

٢٨ كانت بعثة كرامبل من أكثر من ٦٠٠ رجل من السنغاليين المسلحين بعدد كبير من الأسلحة بينها ٣٠٠ بندقية من طراز ريمغتون تاريخ صناعتها ١٨٤٢وهي الأكثر أهمية وعدد آخر من الأتباع والحمالين، ويعتقد الفرنسيون أن كرامبل قتل بتحريض من السيد محمد المهدي السنوسي ، ويعتقد آخرون أن كرامبل قتل من قبل رابح، وعلى أية حال بقي مقتله لغزاً من الغاز الاستعمار الفرنسي في أفريقيا ولكن أن الأسلحة الفرنسية المغتنمة وقعت بيد رابح. انظ ر ، سعد الدين الزبير ، أمبراطورية رابح، ص٦١ ؛ EmilGentil ,La Chutte de l' Empire de Rabeh,(Paris ,1902), p. 235 . Ibid. ,p.126-127 ;

(٢٩) صادق مؤيد العظم ، المصدر السابق ، ص. ١٢٢ ؛ Ahmed Saied ,Commerce et Commercants dans le Sahara Central ,(Marselle,1996),p. 306-307 .

٣٠ المصدر نفسه،١٦٣ .

٣١ Justin Alvariz (Tripoli,April 3,1894), to F. O. , (London) 101/84 , No.7 .

(٣٢) سعد الدين الزبير ، الزبير باشا ،ص٧٩ .

(٣٣) Y. Urvoy , op.cit.,126. Justin Alvares ,(Tripoli, April 3, 1894), to F. O. (London),101/84,No.,7 ;

(٣٤) إبراهيم صالح بن يونس ،تاريخ الإسلام وحياة العرب في إمبراطورية كانم برنو (القاهرة ،١٩٧٦)، ص.١٦٣ . Ahmed Saied ,0p.cit., p.306-307;

٣٥ أنظر رسالة محمد بن أحمد بن هشب الغدامسي (برنو،١٨٩٣) إلى أحمد بن سالم بن حمد كتلي (غات)، وثيقة رقم ٨٧ ، مجموعة بشير قاسم يوشع، المصدر السابق ، رقم ٢ ، ص٢٢٥ .

٣٦ Justin Alvarez ,(Tripoli, April 3,1894), to F.O.(London),101/84,No.,7;Lugard Margery Perham,

The Years of Authority 1898-1945, (London,1961), p. 216-217 .

(٣٦) شكيب أرسلان، المصدر السابق ، ص٦٣ .

(٣٨) مما يذكر أن رابح تمكن من اجتذاب حيات بن سعيد المتذمر من استبداد أبيه إلى جانبه فزوجه بابنته حواء ومناه بغزو مملكة أبيه ، ولكن مقتل هذا الابن جاء على نهاية المشروع بكامله ، ونجت مملكة سكوتو ، من قبضة رابح .
المصدر نفسه ، ص ٦٣ . ٦٤ . F.O. 101/84 , Jully 19,1898;

(٣٩) Consular Report ,Tripoli,1894&1895,(F. O. Annual series, Diplomatic and Consular1521,1713);
صادق مؤيد العظم ،المصدر السابق ،ص.١٦٤-١٦٥ .

٤٠ Consular Report,Tripoli,1898,(F. O. Annual series Diplomatic&Consular2273),p.4-5 .

٤١ رسالة إمحمد حيده (كانو،١٨٩٣) إلى أحمد بن محمد هيبه (غدامس)، وثيقة رقم ٨٢ ، في مجموعة بشير قاسم يوشع ، المصدر السابق ، رقم ٢، ص.٢١٠ .

٤٢ F. O. Miscellaneous series ,Tripoli,1902 ,Northern Nigeria Annual Report ,1902.

٤٣ William Evert ,op. cit., p.3-4 .

(٤٤) Consular Report,Tripoli,1898,(F. O. Annual series Diplomatic&Consular2273),p.4-5;

أنظر كذلك رسالة علي بن منصور (غات ،بدون تاريخ) إلى أحمد بن محمد هيبه(غدامس)،وثيقة رقم ٨٥ ، في مجموعة بشير قاسم يوشع المصدر السابق ، رقم ٢ ، ص٢٢٠ ؛ Justin Alvarez to C.O. ,December 30,1894,(secret) C.O.101/84, Africa, No.11 .

٤٥ رسالة من محمد المنتقي(غات،١٨٩٣) إلى الحاج أحمد بن سالم كتلي (غدامس) ،وثيقة رقم ٩٠، في مجموعة بشير قاسم يوشع، المصدر السابق ،رقم ٢ ، ص ٢٣٠ .

٤٦ صادق مؤيد العظم ، المصدر السابق ، ص١٦٥ .

٤٧

٤٨ Affaires E'trange'res ,Tripoli,du Consul,(Cyrenaica,7 October ,1896),ou Ministe're des Offecis E'trange'res,(Paris) No.10.

٤٩ William Evertt,op.cit.,p.3.

٥٠ رسالة من محمد الصالح بن محمد هيبه (طرابلس ،١٨٩٥)، إلى أحمد بن سالم كتلي (غات) ، الوثيقة ٩٥، مجموعة بشير قاسم يوشع ، المصدر السابق ،رقم ٢ ،ص٢٤٥ .

٥١ المصدر نفسه ،رقم ٢ ،ص. ٢٤٥ ؛ Mr. Jago (Africa) No.2,April 10,1898 , to F.O. 101/84 .

٥٢ D. D. Cordell, Eastern Libya ,Wadai and Sanusiya Atarica ,and Trade Route ,Journal of African History ,Vol. XVIII ,No.1 ,(Cambridge, 1977),p.21-36 .

٥٣ محمد بن عثمان الحشائشي ، جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، تحقيق علي مصطفى المصراتي،(بيروت ، ١٩٦٥) ص ١٨٥؛ محمد فؤاد شكري ، السنوسية دين ودولة ، (القاهرة،١٩٤٨)، ص٥٨-٦٠ . ; Ibid., 21-36

(٥٤) Ibid., p. 21-36 .

(٥٥) William Everett, op. cit., p.4 .

٥٦ سعد الدين الزبير، الزبير باشا ،ص١٠٣ Mr. Jago (Africa) No.2 ,April 10 ,1898, to F.O.101/84, Enclosure I;

(٥٧) William Everett , op.cit., p. 5 .

٥٨ إبراهيم صالح بن يونس ، المصدر السابق ،ص ١٦٢- ١٦٣ .

(٥٩) المصدر نفسه، ص١٦٦- ١٧٠ .

٦٠ لم يذكر دي كاندول اسم خديجة بين بنات السيد المهدي السنوسي، ولعلها كانت ابنة أمة .أنظر ايريك آرمار فولي دي كاندول ، الملك ادريس عاهل ليبيا، حياته وعصره ، ترجمة محمد القزيري (د.م،١٩٨٩) ، ص ٤.

٦١ Justin Alvares,(Africa, April3,1894) ,to,F.O. (London,101/84 ,No.8) .

٦٢ يعتقد سعد الدين الزبير أن فرنسا تحالفت مع السيد السنوسي وعبد الرحمن غورانغ ضد رابح، أنظر ، سعد الدين الزبير امبراطورية رابح ، ص ٥٦ في حين أعرب غابرييل هاناتو " لبث السنوسيون زمناً طويلاً لا يرتبطون بعلاقة مع الدولة العثمانية، غير أن هذا لم يمنعهم من مد حبل الدسائس التي أوقفت بعثاتنا عن كل عمل مفيد لفرنسا في أفريقيا الجنوبية، أنظر جاسم محمد شطب ،المواقف العثمانية إزاء الدعوة السنوسية ١٨٤٠، ١٩١١ ، مجلة جامعة كربلاء العلمية، المجلد الثالث عشر، العدد الثاني إنساني ، ٢٠١٥ ، ص١٨٢.

---

٦٣ Irade Padisahin Emri , Maclisi Vukela Karar ,No.97, 30 Nisan1899,Meclisi Vukela Mazbatalari,

(٦٤)عبد الرحمن تشايتشي، الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى، ترجمة علي إعزازي،(طرابلس،١٩٨٢)،ص١٦٠.

٦٥ المصدر نفسه،ص١٦٠.

٦٦ عبد الله الطوير من قبيلة الزوية، أحد أكثر السنوسيين نشاطاً، استشهد في معركة أم العدم في ٢٣أيار(مايو)١٩١٣ ضد الاستعمار الايطالي .

٦٧ محمد بن عثمان الحشائشي، المصدر السابق ، ص١٥٣.

٦٨ أكد عبد الرحمن تشايجي، بأنه لم يجد وثيقة تدعم هذا الزعم، وأن رفع الأعلام العثمانية من قبل رابح ، ابتدأ بعد عام ١٨٩٨ . أنظر عبد الرحمن تشايجي ، المصدر السابق ، ص ١٦١ .

٦٩ William Everett, op. cit., p.4 .

٧٠ M. Jago, (Africa ,April 15,1895) to F.O. 101/84, No.2.

٧١ سعد الدين الزبير، الزبير باشا ، ص٧٩-٨٠ .

٧٢ سعد الدين الزبير، امبراطورية رابح ، ص٣٤-٣٥ .

(٧٣) تيرنس والاس، تجارة القوافل بين ليبيا ومصر ،مجلة البحوث التاريخية ، (طرابلس ، العدد الأول ، يناير ١٩٨١)،ص٩٥ .

(٧٤) M. Jago,(Africa,March25,1897),to F.O. 101/84,No.2 .

٧٥ Lugard to the Secretary of State for colonies ,February 8,1899, C.O.537/11,No.143.

(٧٦) Instructions Politique Ministre Des Colonies to Capt. Cazemagou ,22 Fevrier 1897, Archives Nationales Section d'Outre ,Mer,Paris Africa, 3 File 25

٧٧ أنظر نص المعاهدة المعقودة بين بول كامبون وسالزبوري في ٢١مارس١٨٩٨(باللغةالفرنسية) الملحق رقم ٦ في مجموعة عبد الرحمن تشايتشي، المصدر السابق ، ص٢٧٢ .

(٧٨) أنظر عبد الرحمن تشايتشي، المصدر السابق،ص١٥٤ .

(٧٩) عبد الرحمن عمر الماحي، المصدر السابق ،ص١٣٦ ؛أنظر كذلك ، شكيب أرسلان، المصدر السابق ، ص٦٣ .

(٨٠) عبد الرحمن عمر الماحي، المصدر نفسه ،ص١٣٧-١٣٩، شكيب أرسلان، المصدر نفسه،ص ٦٣ .

(٨١)عبد الرحمن تشايتشي ، المصدر السابق، Douglas Porch ,The Conquest of Sahara,(London,1984),p.201; ص١٦١ .

٨٢ Ibid., p. 203

٨٣ Adeleye ,op.cit., p.237

(٨٤) أنظر،عبد الرحمن تشايتشي، المصدر السابق ، ص١٦١

٨٥ رسالة محمد بن عبد الله السني في ١٤ محرم ١٣١٥(١٨٩٧،كانو) إلى أخيه عبد السلام في الكفرة ،في محمد مسعود جبران ، محمد عبد الله السني ،(طرابلس ،٢٠٠٦)ص١٤٦-١٥٢ .

٨٦ From Fadllallah to Mr. Hewby , March25, 1901 ,F.O.2/675 ,No.3

٨٧ شكيب أرسلان، المصدر السابق ، ص٦٤ .

٨٨ From Fadllallah to Mr. Walace October 12, 1901 ,F.O.2/675, 19,Rabeh Awal 1219 H. .

٨٩ The Letter of R. Antrobus to F. Lugard ,October 30,.1901 ,F.O. 2/675

٩٠ شكيب أرسلان ، المصدر السابق ، ص٦٤ .

(٩١) The Acting High Commissioner of Notheren Nigeria to Mr.Chamberlian ,C.O. November11, 1901,F.O. 2/675; Walace to Mr. Chamberlian,C.O. November 15,1901,F.O. 2/675.

(٩٢) محمد مسعود جبران ، المصدر السابق ، ص٦٨-٦٩ ؛أنظر كذلك إ . إ إيفانس –بريتشارد ، السنوسيون في برقة، ترجمة عمر الديراوي أبو حجلة ،(طرابلس ،بلا)،ص ٤٥،٥٣-٥٥.

قائمة المصادر والمراجع :-

اولاً: الوثائق العربية والانكليزية المنشورة وغير المنشورة :-

1. رسالة محمد بن عبد الله السني في ١٤ محرم ١٣١٥(١٨٩٧،كانو) إلى أخيه عبد السلام في الكفرة ،في مجموعة محمد مسعود جبران ، محمد عبد الله السني ،(طرابلس ،٢٠٠٦).
2. مجموعة رسائل بشير قاسم يوشع ، ،وثائق غدامس ، رقم ٢، (طرابلس، ١٩٩٥).
3. نص المعاهدة المعقودة بين بول كامبون وسالزبوري في ٢١مارس١٨٩٨الملحق رقم ٦ في مجموعة عبد الرحمن تشايتشي الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى ، ترجمة علي إعزازي، (طرابلس، ١٩٨٢) . (باللغة الفرنسية).
4. Affaires E'trange'res ,Tripoli,du Consul,(Cyrenaica,7 October ,1896),ou Ministe're des Offecis E'trange'res,(Paris) No.10.
5. Consular Report ,Tripoli,1894&1895,(F. O. Annual series, Diplomatic and Consular1521,1713).
6. Consular Report,Tripoli,1898,(F.O. Annual series Diplomatic&Consular2273).
7. Encyclopedia Britannica, Rabih az Zubayr ,https://en.wikipedia.org.

8. F. O. Miscellaneous series ,Tripoli,1902 ,Northern Nigeria Annual Report ,1902.
9. F. O. Miscellaneous series ,Tripoli,1902 ,Northern Nigeria Annual Report , 1902.
10. F.O. 101/84 , Jully 19,1898.
11. From Fadllallah to Mr. Hewby , March25, 1901 ,F.O.2/675 ,No.3 .
12. From Fadllallah to Mr. Walace October 12, 1901 ,F.O.2/675, 19,Rabeh Awal 1219 H.
13. Instructions Politique Ministre Des Colonies to Capt. Cazemagou ,22 Fevrier 1897, Archives Nationales Section d'Outre ,Mer,Paris Africa, 3 File 25(باللغة الفرنسية).
14. Irade Padisahin Emri , Maclisi Vukela Karar ,No.97, 30 Nisan1899,Meclisi Vukela Mazbatalari . (باللغة التركية) .
15. Justin Alvarez to C.O. ,December 30,1894,(secret) C.O.101/84, Africa,No.11 .
16. Justin Avares,(Africa, April3,1894) ,to,F.O. (London,101/84 ,No.8) .
17. Lugard to the Secretary of State for colonies ,February 8,1899, C.O.537 /11, No. 143.
18. Mr. Jago (Africa) No.2 ,April 10 ,1898, to F.O.101/84, Enclosure I.
19. Mr. Jago, (Africa ,April 15,1895) to F.O101/84, No.2; M. Jago, (Africa, March 25, 1897), to F.O. 101/84,No.2 .
20. The Acting High Commissioner of Notheren Nigeria to Mr.Chamberlian ,C.O. November11,1901,F.O. 2/675.
21. The Letter of R. Antrobus to F. Lugard ,October 30,.1901 ,F.O. 2/675 .
22. Walace to Mr. Chamberlian,C.O. November 15,1901,F.O. 2/675.
23. William Everett, A Short History of Rabih Zubeir (secret) ,Colonial Office (C.O.)537/11,Africa, No.2, December 12,1889, Written for the Intelligence War Office ,(London).

ثانياً : الكتب العربية والمعربة :-

١. إ . إ إيفانس بريتشارد ، السنوسيون في برقة، ترجمة عمر الديراوي أبو حجلة ،(طرابلس: د.م ، د.ت).
٢. ابراهيم فوزي، السودان بين غردون وكتشنر ، (القاهرة : مطبعة جريدة المويد ، ١٣١٩هـ) ، ج١.
٣. بن يونس، إبراهيم صالح ،تاريخ الإسلام وحياة العرب في إمبراطورية كانم برنو،(القاهرة ،١٩٧٦).
٤. تيرنس والاس ، تجارة القوافل بين ليبيا ومصر، مجلة البحوث التاريخية، (طرابلس، العدد الأول، يناير ١٩٨١).
٥. حميدي ، جعفر عباس حميدي ، تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر ،(عمان ،٢٠٠٢).
٦. دي كاندول ،ايريك آرمار فولي، الملك ادريس عاهل ليبيا ، حياته وعصره ، ترجمة محمد القزيري (د.م،١٩٨٩) .

٧. سعد الدين الزبير، الزبير باشا رجل السودان ،(القاهرة ،١٩٥١).
٨. سعد الدين الزبير، إمبراطورية رابح ، مذابح الاستعمار الفرنسي في السودان ، (القاهرة، ١٩٥٣)
٩. شكيب أرسلان، سلطنة رابح ، في لوثروب ستودارد ، حاضر العالم الإسلامي ، ترجمة عجاج نويهض ، ج٣.
١٠. شوقي عطا الله الجمل ، تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها (القاهرة،١٩٨٠).
١١. عبد الرحمن الرافعي، عصر إسماعيل ، ط٤، (القاهرة، ١٩٧٨)، ج١ .
١٢. عبد الرحمن الماحي، تشاد من الاستعمار حتى الاستقلال ، (القاهرة ،١٩٨٢).
١٣. عبد الرحمن تشايتشي ، الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى، ترجمة علي إعزازي ، (طرابلس، ١٩٨٢).
١٤. عبد الله عبد الرازق ابراهيم ،الإسلام وتحدي الاستعمار الأوربي في أفريقيا ،الطبعة الثانية،(القاهرة ، ١٩٩٧).
١٥. محمد بن عثمان الحشائشي، جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، تحقيق علي مصطفى المصراتي ،(بيروت ، ١٩٦٥).
١٦. محمد فؤاد شكري، السنوسية دين ودولة،(القاهرة ١٩٤٨).
١٧. محمد فؤاد شكري محمد فؤاد شكري ، مصر والسودان _ تاريخ الوحدة السياسية لوادي النيل في القرن التاسع عشر ١٨٩٩. ١٩٢٠،(القاهرة ،١٩٥٧).
١٨. محمد مسعود جبران ، محمد عبد الله السني ،(طرابلس ،٢٠٠٦)
١٩. نعوم شقير، جغرافية وتاريخ السودان ، (بيروت ،١٩٦٧) ، ج١ .
٢٠. نعوم شقير، تاريخ السودان، تحقيق محمد ابراهيم ابو سليم ، (بيروت ، دار الجيل ، ١٩٨١)

جـ الكتب الأجنبـية :-

21. Adeleye , R. A. . Power and Diplomacy in Northern Nigeria,(London,1971).
22. Barikir , Djama Arbab, L ' Empire de Rabah, (Paris, 1950)
23. Cordell, D. D. , Eastern Libya ,Wadai and Sanusiya Atarica ,and Trade Route , Journal of African History ,Vol. XVIII ,No.1 ,(Cambridge, 1977).
24. Cornevin , R.et.M., Hstoire de L'Afrique ,(Paris,1964).
25. Gentil , Emil, La Chutte de l' Empire de Rabeh,(Paris ,1902).
26. Porch, Douglas ,The Conquest of Sahara,(London,1984).
27. Saied , Ahmed ,Commerce et Commercants dans le Sahara Central Africa , (Marselle, 1996) .
28. Urvoy,Y., Histoire de l' Empire du Bornou ,(Paris,1949).

ثالثاً :الصحف والمجلات:-

٢٩. مجلة جامعة كربلاء، كربلاء ، ٢٠١٥ .

رابعاً: شبكة المعلومات الدولية :-

٣٠.حرب استقلال المكسيك .www.ar.wikipedia.org/wiki